



عبد الرحمن الباشا ونقد الشعر التراثي (*)

د. سمر الديوب - سورية

ينضوي البحث عن منهجية النقد لدى عبد الرحمن رافت الباشا تحت عنوان: نقد النقد، ويمتلك هذا الناقد رؤية إبداعية غنية لا تقف عند زاوية إبداعية واحدة، إنما تتعداها إلى رؤية شمولية فكرية وأدبية. لقد ترك مؤلفات في الرواية، والشعر والنقد، وبحث في ثقافتنا العربية الإسلامية والتحديات التي تواجهها، ولم يشأ لها أن تكون تابعا؛ لكي لا تنتهي وظيفتها في المجتمع. ويحوي الأدب الإسلامي الذي يعد الناقد من أكثر النقاد اهتماما به - مجموع القيم الإنسانية والأخلاقية والتربوية، فقد وجد أنه أدب قادر على مواجهة العراقيل الفكرية والثقافية التي ينتجها الآخر؛ لا خرق قيمنا وأفكارنا، وتشويه أروشنا وتاريخنا.

(*) من بحوث ندوة الدكتور عبد الرحمن الباشا في دار الثقافة بادلبي، وزارة الثقافة السورية.

والقارئ نقد الدكتور الباشا يدرك أن ثمة وشائج متينة تربطه بالتراث؛ ذلك لأنه نظر إلى التراث على أنه دعامة أساسية من دعائم هويتنا، فحاول استثارة المعنى المدفون معتمداً على بلاغة التأويل، وثقافته اللغوية والجمالية، واستعان ببأدوات القدماء؛ ليأتي بأبحاث مفيدة يمكن أن ندرجها تحت عنوان: النقد التطبيقي، في مرحلة زمنية مشرقة من تاريخ أدبنا العربي. إن جانباً مهماً من الثقافة العربية التراثية يسكن ذلك الرجل، ويمكن القول: إن من يقرأ نقده يشعر أن ثمة خلطاً بين الناقد، ونقده، فيصفي للنقد كما يصفي للناقد، ويحاول النقد كما يحاول الناقد.

يشكل التراث البعد الحضاري الحقيقي للموروث العربي، ولل فكر العربي. فإنسان اليوم سليل قرون طويلة من الحضارات التي تشكل أسماء متعددة لمسمى واحد. وقد لا يجد الناقد صعوبة كبيرة في تطبيق رؤيته النقدية على شعر معاصر؛ ذلك لأنه يعيش المشكلات التي يعايشها المبدع، وليس الأمر كذلك حين يفكر في معالجة نصوص شعرية تراثية. فالأمر يحتاج إلى جهد مضاعف. وسواء أكان الشاعر قديماً أم معاصراً يعبر عن مشاعره، وبينني من الواقع أحلاماً، ومن الآمال ألاماً، ومن الحقيقة خيالاً.

وقد اتجه ناقدنا إلى الشعر القديم، فالشعر ديوان العرب، وعلم قوم لم يكن لهم علم غيره، كما أن التكوين الثقافي للعقل العربي تأسس على الشعرية، وبناءً على ذلك ظهرت حركة نقدية اهتمت بالشعر خصوصاً. وكان مهمة الباشا في إحياء التراث الشعري الذي يعشقه. فقد حمل الشعرُ قيمةً رسّخها الشعراء مثلاً يفعل شعراؤنا المعاصرون، فتثقف الناقد نفسه بعقلية نقدية حافلة بالإبداع ارتبطت بالتراث، وتجاوبت مع ذاته اليقظة، ورؤيته الصافية التي التقطت ما

يعدّ هذا الناقد من المثقفين الملتزمين الذين تماثل لديهم الفكر والممارسة، فلم يكن يمكن التفريق بين حياتهم الخاصة، وحياتهم العامة. إنجاز الباشا النقدي ضخم، يشير إلى أن هذا الباحث يمتلك الكثير، ويحرص على تقديمه لمحبي التراث. ولم يكن إبداعه كمياً فحسب، إنه نوعي، فقد ركز على التراث الشعري نقداً، ودراسة أدبية. وثمة اهتمام واضح بمرحلة أدب صدر الإسلام وتاريخه، والصور الثقافية التي تجلت فيه، وجمع بين الأدب والنقد. وربما استطاع من خلال نظراته النقدية أن يأتي بشيء متميز على صعيد كتابة الرواية.

«نقد الشعر التراثي وعلاقته بالهوية»

يعني نقد النقد فيما يعنيه الكلام على الكلام، وهذه المهمة صعبة، على حد تعبير أبي حيان التوحيدي في كتابه الجامع عمق الفكرة وجمالية الصنعة. ففي أثناء إجابته عن سؤال: أحب أن أسمع كلاماً في مراتب النظم والنثر، وإلى أي حد ينتهيان، وعلى أي شكل يتفقان، وأيهما أجمع للفائدة وأرجع بالعائدة، وأدخل في الصناعة، وأولى بالبراعة؟ يجيب التوحيدي: إن الكلام على الكلام صعب. قال السائل: ولم؟ قال التوحيدي: لأن الكلام على الأمور المعتمد فيها على صور الأمور، وشكلها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحس ممكن، وفضاء هذا متسع، والمجال فيه مختلف. فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه، ويلتبس بعضه ببعضه، ولهذا شقّ النحو وما أشبه النحو من المنطق، وكذلك النثر والشعر.⁽¹⁾ وعلى ذلك يمكن للقارئ أن يستنتج من كلام أبي حيان أنه قصد نقد النقد، وبناءً على ذلك يدور النقد على نفسه فقد طالبه السائل بالموازنة بين الشعر والنثر، وسَمَّى هذا العمل: الكلام على الكلام.



وينتظم نقده مجموعة من الأسس المعيارية، والخصائص الأسلوبية، والطموحات النقدية يمكن أن نفضلها بما يأتي:

«الأسس المعيارية في نقد الباشا»

أ. التلازم بين العملية النقدية والهم الوطني والذاتي:

كان الهم الوطني شاغلاً له، فقد دفعه إلى دراسة شعر الشاعر علي بن الجهم وحياته بيتين حفظهما من دليته، ورأى أنهما يعبران عما كان يحصل في سورية حين كانت ترزح تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، وكان الشعب في سورية يناضل من أجل حريته نضالاً حراً. فوجد في البيتين أصدق تعبير عما في نفسه ونفوس أولئك الذين يساقون إلى السجن زمراً.

وحين عرضت في البلاد مناسبة ردّد هذين البيتين وهما:

قالت: حُبِسْتُ، فقلتُ ليس بضائري

حبسي، وأني مهندٍ لا يُفمَدُ

والحبس ما لم تَفْشَهُ لدنية

شنعاء نعم المنزل المتورّد

فشاعا بين الناس، وأصبحا أحد الشعارات التي رفعها المجاهدون في وجه فرنسا وسجونها الرهيبة.^(٢)

لقد شعر أن النص الأدبي مرتبط بتجربة ذاتية، فأضاف إلى الدراسة الأدبية عناصر خارجة عنها، واعتنى بالجوانب النفسية والاجتماعية والسياسية في سياق تحليل الشعر، وعلى سبيل المثال وجد في مجال تحليله المديح لدى علي بن الجهم أن هذا المديح الشعري أتى استجابة للناس في تلك الفترة، وتعبيراً عن مدى الولاية للخليفة، فكان مديحه تعبيراً عن قضايا عصرية، كما كان نقده تعبيراً عن

وافقتها، يقرأ ويحلل، ويقلب الكلام ظاهره، وباطنه، ولم ينظر إلى التراث نظرة معزولة عن سياقها التاريخي والثقافي والجغرافي، وبذلك لم يخرج عن المبدأ القائل: (حينما أتكلم أتكلم نفسي، وأتكلم ثقافتني)^(٣).

«خصائص نقده الشعر التراثي»

تختلف مناهج النقد في دراستهم النصوص التراثية ما بين منهج تقليدي يهتم بالخصائص اللغوية، والمكونات الثقافية التي شكلت النص التراثي، ومنهج حديث يعتمد على معطيات المناهج



النقدية الحديثة من تفكيكية، وأسلوبية، وعلامية، وبنوية، وغير ذلك.

ويتميز النص التراثي من غيره من النصوص بخصوصية يجب على الباحث مراعاتها، تتمثل في الخصوصية المتسمة بالاستناد إلى نصوص محددة كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والأدب العربي القديم، فيكون الموروث مادته لغة، وبلاغة، وثقافة.

ففي كتابه علي بن الجهم، وشعر الطرد يبدو فكره النقدي نيراً. وهو لا يكتفي بالمادة المأخوذة من الديوان فقط.^(٧) ولا يقف عند معطيات الديوان، حتى إنه يجد فيه بعض الخلل، ويحاول توضيحه (ولعل الذي أوقع الأستاذ خليل مردم في ذلك أنه كان هناك شخصان متعاصران، اسم كل منهما محمد بن الجهم، وأن كلاً من الرجلين اتصل بالمأمون، وولي له بعض الأعمال، غير أن أحدهما كان فارسياً متصلاً بالثقافة اليونانية، والآخر عربياً متصلاً بالثقافة العربية)^(٨).

ويعتمد في دراسة حياة الشاعر على معطيات التحليل النفسي، والمؤثرات السياسية والاجتماعية والدينية في إبداعه الشعري، ويركز على خصوصيات العصر والثقافة. ف (الأدب مرتبط بصورة حيوية بأوضاع البشر الحياتية: فهو ملموس وليس مجرداً، يبيد الحياة بكل تنوعها الخصب، وينبذ البحث المفهومي العقيم مقابل الشعور بما هو حي، وتذوقه)^(٩).

ويعتمد منهجه على ترجمة حياة الشاعر، ثم النظر في شعره، فقد ترجم لشعراء الطرد، ثم نظر في طريقاتهم^(١٠) من جهة الخصائص المعنوية والموسيقية والتصويرية.

ج - الانتقال من المقدمات إلى النتائج:

منهجه هذا قاده إلى استعراض المعاني في شعر الشاعر، ثم الوصول إلى نتائج مستقاة من المادة التي رصدها. فبعد أن يستعرض طريقات أبي النجم العجلي يستخلص خصائص شعر الطرد لديه.^(١١) وبذلك يحيط بالموضوع من كل جوانبه.

وفي دراسته شعر علي بن الجهم يجتهد في مناقشة روايات المصادر التاريخية، والاستدلال على الصحيح

هم فكري ووطني. لقد وافق هوى علي بن الجهم السياسي هوى المتوكل في ذم الطالبين، والاحتجاج للعباسيين.^(١٢) فوافق شعره هواه السياسي، وكان المتوكل أشد الخلفاء العباسيين كرهاً للطالبين.

أعطى الباشا من ذاته للموضوع، فرأى الموضوع من خلال الذات، أو رأى الذات من خلال الموضوع. ويعني هذا الكلام أن النص الشعري يقدم إلى المتلقي من الداخل، لا من الخارج. أما في دراسته شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري فقد مزج بين حاله الذاتية والنص الشعري

معللاً سبب اختياره هذا الشعر مادة للدراسة بأنه قام برحلة في أعالي نجد من الجزيرة العربية، ومتمعة هذه الرحلة حسمت الأمر، وقطعت التردد، وجعلته يقدم على دراسة هذا الشعر^(١٣).

ب - دراسة خصائص العصر والإحاطة بحياة الشاعر:

عمد الباشا إلى التدقيق في صلة النص الشعري بمشكلات التاريخ، والخصائص الثقافية الأخرى. يرى صاحبنا نظرية الأدب أن (أولى مهمات البحث تجميع مواده، والكشف المتأني عن آثار الزمان، والتأكد من المؤلف، ومن النص وتاريخه)^(١٤).

ويعتمد في دراسته حياة الشاعر أو عصره على الأفكار المأخوذة من المصادر، ومناقشتها. وفي هذا الأمر دليل على نظريته النقدية التي لا تقبل بالأمر على علته، إنما تطلب الخبر، وتناقشه فتقبله، أو ترفضه بناءً على أسس واضحة. وهذا ما فعله في دراسته حياة الشعراء الذين وقف على شعرهم.



خليل مردم بك



فلم يسفر بحثي الطويل الصابر إلا عن طردية واحدة كبيرة، ومنت صغيرة من طرديات ضاعت بواقفها.. وقد بذلت الجهد في إيضاح غموضها، وإزالة اضطرابها، وتصحيح تصحيفها، وشرح معانيها حتى استقامت معنى ومبنى، وغدت ميسرة للقراءة والدراسة^(١٤).

ورافقت ممارسته النقدية هذه ممارسة على أرض الواقع أيضاً؛ (فهذا الشعر شعر الطرد في جملته وصف للصيد في حالاته المختلفة، وكيف يستطيع المرء أن يدرك الصفة وهو لا يعرف الموصوف، ومن أين

له أن يتذوق النعت، وهو خالي الذهن من المنعوت؟)^(١٥).

كان هذا الكتاب سرداً لقصته الطردية العربية من نشأتها إلى نهاية القرن الثالث الهجري، روى من سيرتها ما استطاع روايته، وقدم للقارئ من خلالها ثلاثين ومئة طردية، ثم قومها، وأبرز أهم خصائصها، ومزاياها. كما اجتهد في أثناء دراسته شعر ابن الجهم في ترتيب القصائد المأخوذة من أمهات الكتب ترتيباً زمنياً متصلاً، ونظر في ذلك إلى تطور القصائد مع تطور

نفسية الشاعر. ف (الدارس لهذه القصائد وفق ذلك التسلسل يرى أنها ترسم خطأ بيانياً واضحاً لنفسية الشاعر من أول يوم دخل فيه السجن إلى آخر يوم خرج فيه منه)^(١٦).

هـ. اجتماع الوصف والتحليل والقدرة على التأويل؛

وقد مرّ بنا أن التأويل كان ناتجاً من النص الشعري، أو النص التراثي الذي كان يأخذه من أمهات

بالاحتكام إلى العقل والمنطق^(١٧). ولعل جهده النقدي في هذا المجال يندرج ضمن ما يمكن تسميته بالنقد التاريخي التجريبي، فقد شعر الناقد بالحاجة إلى التجريب النقدي المنطلق من النص الأدبي، والنص التراثي، وأمسك بالأداة النقدية المناسبة للحوار معه. فاستخرج أفكاره من باطن النص التراثي شعرياً كان أو نثرياً، وأضاف إليها أفكاراً نقدية أسعفته على التقويم النقدي. ومما لا شك فيه أن هذا النوع من الممارسات النقدية يثري الفكر.

والباشا من النقاد الذين أسسوا لمنهج نقدي إسلامي، وهو لا يستطيع أن يرسي أفكاره النقدية من دون تجريب. فلم يول اهتمامه للشعراء الأعلام في التراث العربي الإسلامي فقط، لقد اهتم أيضاً بالشعراء المغمورين شأنهم شأن الأعلام، فدراسة شعر الطرد لدى أبي نواس مثلاً، أو لدى أبي النجم العجلي لا تعني عدم الاهتمام بطرديات عبد الصمد بن المعذل، أو الناشئ الأكبر، أو الشمردل ابن شريك اليربوعي^(١٨). فركز

على الشخصيات المتفردة والمغمورة، واهتم بالجوانب المشهورة والفريدة في الأدب مدركاً أن الأدب يعني تكامل الفريد والمتشابه.

د. الرغبة والإصرار والعمل الدؤوب؛

كان الباشا باحثاً لا يكل، ولا يمل في وقوفه على النصوص التراثية. والرغبة في العمل، والإصرار عليه من أهم الأسباب التي تولد ناقدًا متميزاً. يقول: (لقد بحثت عن طرديات عبد الصمد بن المعذل ما وسعني الجهد



لقد نظر إلى التراث بوصفه وحدة متصلة، مدركاً أهمية صلة اللغة العربية بالهوية القومية ضمن عمله في مجال نقد الشعر التراثي، ومدركاً وظيفة الدراسة التكاملية بين الشكل والمضمون، ووظيفة الجوانب البلاغية والنقدية في النص التراثي. فأية (دعوى من دعاوى تجديد العقل العربي، أو نقده لا يمكن لها أن تتغافل عن المكون النقدي والبلاغي داخل التراث)^(٢٠).

تتمثل نظرتة إلى الشعر التراثي من جهة كونه ينبت قوته، ويحمل رموزاً كبيرة وعميقة لها أكبر الأثر في صياغة الشخصية العربية، وهاجس التراث الذي حمله في قلبه هاجساً فنياً عالي الطموح كَوْن لديه موهبة النظر إلى النص بوصفه وحدة متكاملة من جهة اللغة والصور والإيقاع، فكان بذلك أشبه بالصيد الذي يحرك طريدته؛ ليبعث فيها الحياة في سكون الغاية، والناقد صياد للصور واللغة والأفكار والرؤية والرؤيا. وهو مبدع آخر يشارك المبدع الأول في إضاءة جوانب الجمال في النص الشعري وبذلك شعر أنه ليس في حاجة إلى استعارة أية خصوصية نقدية من الشعوب الأخرى مع أن هذا الكلام لا ينفي تقديره خصوصية الآخرين.

ز. اجتماع الموهبتين النقدية والأدبية في شخصيته:

اعتنى الباشا بالأدب إبداعاً ونقداً عناية كبرى، وكان من الرواد الذين عملوا في مجال الأدب الإسلامي. وقليلة هي الأبحاث التي اتخذت من الأدب الإسلامي مادة لها مقارنة ببقية العصور الأدبية. وثمة علاقة تكاملية بين الإبداع الأدبي والنقد، وبين المبدع والناقد، وكل من الطرفين يؤثر في الآخر، ويقدم مادة لعمله، وربما نستطيع القول: إن النقد يكون متميزاً في حال كون الناقد أديباً؛ لأنه في هذه

الكتب، وكان واضحاً لديه تجنب الأحكام النقدية الشائعة؛ لالتزامه بمنهجية واضحة. فكان يقف على النص الشعري، فيبرز المعاني الكامنة في علاقتها بالأسباب النفسية والاجتماعية. والرؤية الكلية أو ما يقاربها (لا ينالها إلا من تعلموا كيف يصنعون مزيجاً من الاستبصارات التي تمخضت عنها الطرائق النقدية العديدة).^(١٧) فوعى علاقة الشعر بقضايا العصر وخصائصه التاريخية والثقافية، وجمع بين الجانب الوصفي في الدراسة، والجانب التحليلي، وبحث في النسق المضمري، وأوّل ما يحتمل التأويل والتفسير من داخل النص الشعري. وكان يمتلك قدرة تأويلية واضحة، فقد انطلق من إشارات تاريخية بسيطة، ومعلومات متناثرة لا ينظمها ناظم، فتحوّلت الإشارات البسيطة إلى تأويل محكم. وبذلك ابتعد عن التأثيرية، أو الانطباعية واقترب من النقد الموضوعي.

و. منهجه نقدي كلاسيكي:

يقوم منهجه على تلاحم الوصف والتحليل مع الذوق والتعبير والإيقاع.. للشكل والمضمون معاً، وقد اعتنى بالعناصر الشعرية فعرض موضوعات الشعر لدى ابن الجهم مثلاً. ثم أتبعها بدراسة لعاطفته، وخياله، وصوره، وخصص فصلاً لدراسة أغراضه الخاصة. ويقصد بها شعره المذهبي، وشعر السجن، وأرجوزته في التاريخ، ثم أنهى بحثه بفصل عن خصائص شعره المعنوية والأسلوبية والموسيقية.^(١٨)

وتلمح لديه رغبة شديدة في تأصيل النص التراثي من خلال الدراسة النقدية؛ لذلك اهتم بالبلاغة، والأسلوبية من خلال الاتجاه الوصفي التحليلي الذي جمع بين دراسة البلاغة واللغة والموسيقى والمعنى الشعري، ويرى جورج واتسون أن هذا الاتجاه النقدي هو (النوع الوحيد الذي فيه اليوم شيء من الحياة والنشاط).^(١٩)



إلى الرواية، فقد ظلت بعيدة عن دائرة اهتماماته النقدية. وكم كان حرياً به أن يربط من خلال رؤية الرواية نقدياً مكونات الثقافة الوطنية، ومدى ارتباط الرواية بها، ويقرأ نقدياً الإيديولوجيات الغربية.

ومن المعروف عن الأديب إذا كان ناقداً أن يعمم رؤيته الإبداعية على نقده. لكن الباشا قد اتخذ مجالاً بعيداً عن مجال الشعر التراثي، فلم تتعد أفكاره النقدية الشعر التراثي لتصل إلى نقد الرواية.

والجدير ذكره أن ظاهرة الأدباء النقاد ظاهرة قديمة في تراثنا العربي، نرى بذورها منذ العصر

الجاهلي على يد أوس بن حجر،

وزهير بن أبي سلمى، وابنه كعب،

والحطيئة. فقد كان هؤلاء

الشعراء يجمعون الشعر

والنقد، فيخرجون

قصائدهم بعد أن

ينقحوها حولاً كاملاً.

وتعد هذه العملية

نقدية تطبق على

النص الشعري.

واستمرت هذه

الحركة النقدية الأدبية

مع عصور الأدب كما نرى

لدى الخنساء، والناطقة الذبياني وحسان بن ثابت،

وجرير، وابن المعتز.. وعندما يركز الأديب على

معاييره النقدية يأتي بنقد فني متميز إذ يجمع بين

لغة الوجدان ولغة العقل.

ح - الموازنة بين الشاعر المدرس وغيره من

الشعراء:

من المعروف أن الموازنة تثري الدراسة الأدبية،

وقد ساعده الإبداع على اتسام أحكامه بالدقة

الحال يكون أديباً على تواصل بالنقد والنقاد، وهذا التواصل إيجابي يرتقي بأدبه ونقده. وقلة أولئك الذين جمعوا بين الأدب والنقد. ولعل هذه الميزة قد مكنته من أن يكون لديه فكر نقدي تحليلي فني جمالي، فقد قلّص المسافة بين المبدعين والنقاد، وأصبح يتعرف موقعه داخل المدرسة التي ينتمي إليها، ونظر إلى أدبه نظرة نقدية فاحصة بغية تطويره. إنه ناقد مقوم، وأديب مبدع. وقارئ متذوق كان وفياً لتراثه، ملتزماً، طموحاً، مثابراً، مثقفاً، ثقافة أدبية ودينية.

ويمكن أن نعدّ فهمنا شخصيته مفتاحاً للدخول إلى عالمه النقدي. ف (الشخصية هي تلك التي

تتيح لنا تنبؤاً بما سوف يعملها الشخص في موقف معين) (٢١).

ولعله أدرك أن ثمة علاقة بين

الرواية ونقد التراث، فقد أراد

أن ينقل تجربته الإبداعية

بلغة نقدية متميزة،

وشغف بالإبداع الروائي

الذي حمل همّه الوطني

مثلما شغف بالممارسة

النقدية.

ومما لاشك فيه أن الناقد الأدبي

الذي يعاني همّاً وطنياً تختلف رؤيته النقدية عن ناقد

آخر لا يعاني هذا الهم. فالجانب الذاتي أمر طبيعي

في العملية النقدية، وبذلك نقرأ أعماق الناقد، ورؤيته،

ورؤياه، ويشترك الأديب والناقد في حساسيتهما،

وعمقهما الشعوري مع الاختلاف في طبيعة النظر إلى

الأمور.

وقد يضمّن الناقد السرد الروائي بعض اللمحات

النقدية، فيقدم ما يطمح إليه عبر النص الأدبي.

واللافت أن الباشا كتب الرواية لكن نقده لم يصل



والموضوعية. ف (لا ينتظر من علي بن الجهم أن يكون شاعراً حكيماً كصديقه أبي تمام مثلاً، ذلك لأن الحكمة عند الشاعر العباسي...) (٢٢).

ط. وظيفة الأدب والنقد لديه :

يرى أن للأدب رسالة يجب أن يؤديها تتمثل في التزام حرّ بقضايا الإنسان والوطن، ويتوجب على الأدب المشاركة في تشخيصها. ويتمثل هذا الكلام ومفهوم الالتزام مع أننا نجد أن له نظرة خاصة، فهو يرى الأدب فوق كل التزام، وفي الوقت نفسه يرتبط الأدب بقضايا أمته، والتعبير عن سعيها للخلاص، وقد طبق هذا الالتزام من خلال أدبه ونقده معاً (٢٣).

ويرى أن على الناقد مسؤولية كبرى من جهة كونه يبحث عن حقيقة ما، وكل نص شعري يحاول أن يقول شيئاً ما، وعلى الناقد بأدواته أن يدخل إلى مواطنه، وأن يكتشفها، ويجب أن يكون وعي الناقد بالنص الشعري متجاوزاً فهم المبدع؛ ليستطيع تلايف الثغرات. فالنقد لديه مشاركة في العملية الإبداعية، وبذلك تتحقق وظيفة النقد في تقويم حركة الفكر والإبداع، كما يرى أن النقد إبداع. وقراءته عملية إبداعية، وحرّي الناقد أن يتحلى بالإبداع؛ لكي يقترب من الإبداع. وأن تقوم عملية الإبداع على الثقافة التي يمتلكها المبدع. فلا بد للموهبة من ثقافة، ولا بد للثقافة من موهبة.

شكلت مؤلفاته النقدية مادة متنوعة، ومتابعاته التراثية طابعاً خاصاً يشكل ثقافة نقدية خاصة ذات نمط متغير، نقيض لثقافة الامتثال في الوظيفة. يتناول تفاصيل الحياة الفكرية والدينية والأدبية. وبذلك يكون النقد نقداً للمرجعيات المعرفية كلها. وتتحدد علاقته بالتراث بصفاتها فعلاً إيجابياً ضمن الحياة التي يحيها بعلاقاتها المختلفة. فلا يوجد نقد وأدب من دون معرفة، ولا قارئ فاعل من دون ثقافة.

والفعل النقدي القادر هو المحاور حوار الناقد والقارئ، وبذلك يخوض القارئ والناقد معركة واحدة، ويقترب كل منهما من الآخر. فكل ممارسة نقدية هي إنتاج لشكل معين من الاستقبال النقدي.

لقد نظر إلى الشعر التراثي على أنه يمتلك وظيفتين: وظيفة فنية جمالية نقدية، ووظيفة إيديولوجية. وبذلك تكون ثقافته النقدية ذات طبيعة قادرة على التغير، لا ثقافة امتثال، تنزع إلى المستقبل، وتهدف إلى تحرير الفكر والإنسان انطلاقاً من التراث. إنه يبدأ من التراث لأخذ ما يجب أخذه منه، وينتهي إلى ما يجب أن ينتهي إليه، وهو الوعي بالواقع من خلال التراث. ركز الباشا على الموجود في قراءة النص، لا على الموجود في النص نفسه، وعمد إلى تفهم النص الأدبي أولاً، وتدوقه ثانياً. ولم يتأت له ذلك لولا الممارسة النقدية المستمرة، والتواصل مع التراث. فعملية التدقيق عند الناقد الأدبي تسبق عملية التحليل بغية الوصول إلى حكم نقدي (٢٤).

ي. الموضوعية :

تميز نقده بالمصداقية: فهو يظهر الإيجابيات، ويتوقف عند السلبيات. ولم يجعله هاجس التراث يغمض عينه عن مواطن الضعف في الشعر المدروس. فقد عاب على ابن الجهم تكلفه الشديد الذي يبدو أكثر وضوحاً في رثاء أبي تمام حتى لكان الشاعر يقصر نفسه على القول قسراً، ويحملها عليه حملاً (٢٥).

أما اللون الذي دعاه بالغزل العارض لدى ابن الجهم، فهو أضعف غزله بناءً، وأقله رواء؛ ذلك لأنه يُطلب، ويحمل عليه، فيُفسر نفسه على قوله (٢٦).

لقد كان موضوعياً في منهجه، فوقف على مسافة من النص الأدبي، أدواته في الموضوعية هي التحليل، والحكم، والسيطرة على ثنائية الداخل والخارج في النص.



وقد أثرى الباشا مفردات اللغة النقدية (ولعل في ذلك كله ما يوحي بقدره الشاعر على مدّ طاقات اللفظة، وجعلها تتجاوز الحدود الذهنية التي رسمتها لها كتب اللغة، وتثير في القارئ كثيراً مما أكنّه في عالم نفسه، وتؤدي للشاعر ما تعجز اللفظة المحدودة عن تصويره.^(٢٢) ولا يفهم من هذا الكلام أن تلك السمة الإنشائية غالبية على اللغة النقدية. فلو طغى الكلام الإنشائي لوصل الباحث إلى إحدى طريقين: النتائج الخاطئة، أو الخروج عن الموضوع، وكان الباشا يجمع بين لغة النقد ولغة الإبداع.

ب. صيغة السؤال:

كثيراً ما كان يصوغ أفكاره في شكل أسئلة وتساؤلات يقدم من خلالها رؤية خاصة للفترة المدروسة مستفيداً من مخزونه النقدي الثقيل، ومستنداً إلى معطيات الجماليات النقدية بقراءة واعية هدفها التركيز على الإنسان المبدع. وبذلك يكون النقد نقداً للمرجعيات المعرفية كلها.

وقد قدّم السؤال من أجل أن يشاركه المتلقي في العملية النقدية، ولإضافة جو من التشويق إلى النص، (ونحن نتساءل بعد ذلك هل تطورت قصيدة المديح عند ابن الجهم خلال السنوات الثماني التي اتصل فيها بالمتوكل كما تطورت علاقته به، أو أنها بقيت محافظة على سمتها الأولى حين أنشده أول قصيدة بين يديه)^(٢٣) يمثل السؤال مفتاحاً للدخول إلى القضية التي يدرسها، ويعرض لها، وهو يبدو من أول السطر: ليزيد من بروزه.

وقد يحمل السؤال إجابته معه، وهي خصيصة أسلوبية ظاهرة في نقده، وأسلوب يحمل معه درجة عالية من تنظيم المعرفة، ويشوق المتلقي، ويثيره، ويحثه على الاستماع، فلا يتركه وحيداً، ثم يتبع

ويربط النص بمبدعه، فلا يمكن للنص أن يأتي من فراغ؛ لأن له صلة بحياة المبدع الذي يحمل فكراً يظهر في نصه.

يؤكد هذا الكلام مرة أخرى صلة النقد بناقده إذ إن (باستطاعتنا دراسة النقدة، ونحن نستقصي الأساس الذي تركز عليه مؤلفاتهم، وسداد أحكامهم، أو عمقها، أو المقدرة التي يظهرونها في التحليل والمحادثة، وفي فن المجادلة)^(٢٤).

«الخصائص الأسلوبية في كتابته النقدية»

أ. لغته النقدية المشرقة:

من أبرز سمات لغته النقدية تزاوج النقد والإبداع لديه، فهو يستخدم اللغة الأدبية الشفافة: لتوضيح أفكاره في كثير من الأحيان، فيقدم للقارئ لغة مشرقة تجمع بين مصطلحات النقد، وأساسه، والألفاظ الحافلة بالخيال. ولعل ذلك الأمر يعود إلى ميزة الجمع بين الأدب والنقد، إذ تعد هذه الخصيصة تحرراً من جمود اللغة النقدية. يقول: (ثم أقبل الحكام والمحكومون على الترف يترعون منه ثم لا يرتوون، وأوغلوا في المتع يلهثونها التهاماً ثم لا يشبعون)^(٢٥).

وتبدو عنايته واضحة بالإيقاع في الجملة النقدية (كانت نفس الشاعر بعد مصرع المتوكل تمور بشتى الانفعالات، وتهتز بمختلف العواطف)^(٢٦)... (وقد بلغ من يأسه أنه جعل يفرّ من الأحياء ومفانيهم، ويفزع إلى الأموات وقيورهم، ليجد فيها السلوة لمن آسأه والأنس من وحشته...)^(٢٧).

وقد جمع بين إنشائية العبارة النقدية وحسن التقسيم يقول: (الشعر باب من أبواب الكلام، وضرب من ضروبها، فصالحه صالح، وهو مقبول، وفاسده فاسد، وهو مرفوض)^(٢٨) ولهذا اللغة النقدية المشرقة وظيفة في تطوير السياقات الدلالية.

الثرية في قدرتها على التأثير في القارئ، وإدراكه العلاقة الوثيقة بين اللغة العربية والهوية القومية من خلال ممارسته النقدية؛ ذلك لأنها تمثل الخصائص الثقافية العربية والإسلامية. وقد ساعدته خلفيته الأدبية وخلفيته الفكرية على ولوج باب النقد، وفتحت الأفق أمامه لقراءة العصر.

هـ. الاستشهاد:

هدف الباشا من خلال الاستشهاد إلى توثيق الفكرة التي قدّمها من خلال السرد، أو أفعال الأمر، أو إثارة الأسئلة. وتعدّ هذه الخصيصة مشتركة، لا تخصّ الناقد وحده، وتكمن قيمتها في توظيف الشاهد سياقياً فقد يذكره؛ ليعارضه، أو ليدعم فكرته، أو لشرح وجهة نظره، أو ليدلّل على قضية ما. وقد يستشهد بأي من الذكر الحكيم^(٤٠)، أو الحديث النبوي الشريف، وقد يستشهد بشاعر آخر^(٤١) أو بنص من كتب التراث.

السؤال بتفسير ما قصد إليه، لقد كان يدرك أن ثقافة السؤال أهم من ثقافة الجواب إذ تكمن مهمة التأويل والاستنتاج (في إثارة التساؤلات بدلاً من الإجابة عنها، والتساؤل عن شيء ما بدلاً من الاستنتاج منه، وخلق مكان حيث يمكن أن تحدث المواقع فيه بدلاً من التكلم انطلاقاً من المواقع)^(٣٤).

ج. صيغة الاستفهام الذي يخرج إلى معانٍ أخرى،

تؤدي هذه الخصيصة وظيفة مشابهة للوظيفة السابقة، تحرك ذهن المتلقي، وتجعله مشاركاً في العملية النقدية (وعلي بن الجهم لم يكن جزوعاً إذا مسّه الضرر، فكيف يجزع لموت الآخرين)^(٣٥)، (فهل رأيت تعبيراً عن الحنو أبلغ من قوله... ٩١)^(٣٦).

وقد اقترح رولان بارت أن يسهم القارئ في وقائع النص، لكي يغدو قادراً على خلق سياقات مؤتلفة ومختلفة، وعلى نحو تصبح معه كل قراءة بمنزلة تحدّد لذاكرة هذا القارئ، بل يغدو النص نفسه نصّاً داخلياً شخصياً أكثر منه نصّاً نهائياً محدداً^(٣٧).

د. أفعال الأمر:

عمد الباشا إلى معاورة القارئ من خلال أفعال الأمر، فكسر الحاجز النفسي بين المادة النقدية والقارئ. وشاركه في العملية النقدية؛ ليتدرب على التمييز والمفاضلة، وولد في داخله شرارة؛ ليتعرف إلى هذا التراث الثر. وكثيراً ما كان يخاطب القارئ بقوله: (استمع، اقرأ)^(٣٨)، (فاستمع إليه وهو يصف لك حفل صيد اشترك فيه الشاعر مع هشام بن عبد الملك...)^(٣٩) ولعل اهتمامه بهذه الجوانب اللغوية دليل ناصع على إدراكه وظيفة الجوانب اللغوية



و. الاعتراض،

يعمل الاعتراض الحالة النفسية للشاعر الذي يدرس شعره، ويأتي الاعتراض عن طريق عبارة تحليلية تعليلية، وهو اعتراض تعقيبي، إذ يأتي بجملة يعقب من خلالها على قضية ما، يقول في حديثه عن علي بن الجهم: (ثم يعرض الشاعر للناس صوراً مشرفة من حكم المتوكل تقابل تلك الصور القاتمة؛ ل يبدو لهم الفرق بين المهدين، كما تفعل وسائل الإعلام في العصر الحديث. من ذلك أن الخليفة أخذ بمبدأ الشورى في سياسة البلاد...) (١٢)، (ولا عجب فقد أصبح للشاعر حساده كما يقول في إحدى قصائده الأخيرة، وغدا يقف في القصر...) (١٣).

طموحاته النقدية:

تميز نقد الباشا بالتكامل بين الجانب

التنظيري والتطبيقي، وبين النقد

التحليلي والتركيب، كما تميز بأنه كان نقداً تطبيقياً تأسيسياً، وقد طمح إلى أن تكون علاقة النقد بالإبداع علاقة تكاملية، فيأخذ النقد

مادته من التراث الشعري،

ويعمقها بالنظر العميق فيها من دون أن يهمل الرواية، وهي منجز عصري، ونتاج حضاري:

- فزواج بين المعايير النقدية المعتمدة على أصول تراثية، والمستجدات العصرية.

- وطمح إلى إخراج شعراء مغمورين إلى ساحة النور.

- قدم لغة نقدية مشرقة، متخلصة من الكلام المترهل،

تعتمد على التكتيف والتركيز.

- حاول تقليص المسافة بين النص الإبداعي والمتلقي،

وذلك عن طريق الارتفاع بذائقة المتلقي بخلق

ذائقة نقدية متميزة لديه.

- عمل على إيجاد دراسات تأسيسية منهجية من خلال

النقد التطبيقي للمجموعات الشعرية والقصائد المفردة.

- وقد رأى أن النقد المتصل بالشعر القديم نقد يعتمد على

إصدار أحكام نقدية عاثمة، فسعى إلى ضبط المصطلح

النقدي العربي، ووضع لبنة في سبيل تحقيقه، فابتعد

عن الاستيراد الأعمى من الخارج، ورأى أن الأدب

جهاد في حياة المسلم، وله أهمية كبرى في بناء المجتمع

الإسلامي (١٤).

- ودعا إلى مذهب إسلامي في الأدب ونقده، وبحث في

مهمة الأديب الإسلامي في بناء المجتمع (لا ريب في

أنك حين تسمعون ندعو مع الداعين إلى إقامة مذهب

إسلامي في الأدب ونقده ستقول في نفسك: يحسن

بكم قبل الكلام على هذا المذهب وأسسهِ وتطبيقاته



أن تقفونا على موقف الإسلام من الأدب ونظرته إليه (١٥).

أراد من خلال النقد أن يقدم النماذج الطيبة، والقذوة

الحسنة، ليكونوا مثلاً في العمل الصالح، وضح مفاهيم

خاطئة عن موقف الإسلام من الشعر والأدب عامة، وكان

مذهبه في الأدب الإسلامي ونقده سلاحاً لمقاومة الغزو

الفكري والحضاري والوجداني، والدرع الواقي الذي يقف

في وجه التيار الجارف للمذاهب الأدبية المنبثقة من نظرة

أصحابها إلى الإنسان وما حوله، ففرض الخصائص

العامة للمذهب الأدبي الذي سعى إليه بمعلوماته الموسوعية

له دراسات جعلت له اسماً بارزاً، وقد أراد من خلال التنظير الأدبي أن يلتزم الأدب بتبني التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، ودعا إلى منهج في الأدب، وإلى أن يكون الأدب الإسلامي سلاحاً لمقاومة أشكال الغزو، ودرعاً للثقافة العربية الإسلامية. وقد ترك هذا المنهج الذي دعا إليه صدى في الحياة النقدية.

٣. نقد النقد،

ظهر في ثانياً كتبه النقدية، وذلك عن طريق التعرض لآراء النقاد والباحثين من خلال العودة إلى أمهات الكتب، ومناقشة أفكارها النقدية، وهو ما يعرف بتوسيع الأفق النقدي الحواري، ساعده في ذلك كله ذخيرته الثقافية، وخطابه الجمالي المعرفي المبني على أسس منهجية واضحة.

غير أن المتتبع نقد الباشا يرى أن ثمة خلطاً بين النقد الأدبي والدراسة الأدبية مع أن ثمة تبايناً في المعالجة النقدية، والأسس الناظمة لكل منهما. كما نجد خلطاً لديه في الحديث عن طبيعة الشعر وشكله. فالحديث عن طبيعة الشعر يتعلق بالشعر بصفته أثراً فنياً تربطه علاقات وثيقة بالفنون الأخرى. وبالشعور الذي يدخله إلى نفس المتلقي، وبمقاييس الجمال التي يتم الحكم من خلالها على الشعر، وما يتعلق به. أما البحث في شكل الشعر فيدور حول صفة الشعر وأدواته وموسيقاه وبنائه وكل ما يجعل من النص الشعري شعرياً، مع مراعاة أن الشاعر لا يلتزم بالواقع، إنه يقدم رؤيته ورؤياه، فيشعر أنه شريك فيما يحيط به عن طريق شطحاته الشعرية.

لقد ربط الباشا الدراسة الأدبية بالدراسة التاريخية، ورأى أن ثمة علاقة بين السياسة والأدب. وهذه السياسة في نظره تقتصر على القصور، فغداً ربط الأدب بالسياسة ربطاً للأدب بالقصور والحكام.^(٤٧)

كما حدّد غرض الدراسة الأدبية بدراسة ما يستتر

الشاملة، وتحليله العلمي الدقيق، وأسلوبه الأدبي المتميز، وخلص إلى رسم منهج إسلامي في النقد ييسّر وضع المقاييس والمعايير لمعرفة الفث من الطيب. وكان من السباقين لتطبيق هذه الفكرة من خلال تدريسه الجامعي، وندواته، والرسائل التي أشرف عليها، والإسهام في تأسيس رابطة تعنى بهذا الموضوع، وتحولت هذه الفكرة إلى منظمة عالمية. وبذلك جمع بين الفنية والعودة إلى النبع الإسلامي يستقي منه، ويبين خصائصه.

« رأي في جهود د. الباشا النقدية »

توزع عمل الباشا النقدي على ثلاثة اتجاهات نقدية مهمة:

١. النقد الأدبي،

تجلّى في دراسته الشعر التراثي، فقد كان الميدان الوحيد الذي احتضن إسهاماته النقدية وتنظيره الأدبي، وقد جعل من الأدب الإسلامي موضوعاً معرفياً ثقافياً انصبت جهوده عليه بالتحليل والنقد والحوار، ويكاد لا يترك شاعراً له علاقة بهذا العصر من دون أن يتوقف عنده شرحاً وتحليلاً ومحاورة وتنظيراً وتطبيقاً.

تعدّ تجربته في النقد الأدبي تجربة تصاعديّة تحوّل فيها من الدراسة الأدبية إلى النقد الجمالي المعرفي، وانتقل من مرحلة المقولات ومناقشتها إلى مرحلة الكتابة. وتعيّن الهدف من نقده الشعر التراثي في حقل القيم؛ ذلك لأن التاريخ في تقدمه وتراجع مرآة لتقدم القيم وتراجعها. فقد نظر إلى التراث بوصفه تاريخاً قديماً، وفي الوقت نفسه ظلت صلتها به حية إلى اليوم. إنه يحوي السمات الأصلية لأمتنا والقيم الباقية لشعبنا، والروح الخالدة لشخصيتنا.^(٤٨)

ويمكن أن نقول: إن نقده الأدبي ثلاثي الأبعاد، فهو اجتماعي، تاريخي، تحليلي فني.

٢. التنظير الأدبي،

تطورت شخصية الباشا النقدية في هذا المجال، فكان



وراء النصوص من دلائل نفسية واجتماعية وسياسية؛ الجهم على سبيل المثال لم يسلم من الاستطراد. لذلك دعا إلى نظرية جديدة، تعتمد حكم القيمة، فهي لا تشرح إنما تصل إلى حكم قيمة. ويفسر الأدب اعتماداً على اللغة والموضوعات والمعاني... ونراه يصدر الأحكام النقدية لكنه لم يسلم من الوقوع في مطب التكرار، ويسهب في الشرح. وكتابه علي بن

الهوامش:

(١) التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ج ٢/ ١٣٠، ١٣١.

(٢) كلوني، محمد. اللغة الشعرية، ص ٢٨ نقلاً عن:

Baple' line la poesia
'Armand colinbourrolier.
paris. 1980. p. 131

(٣) انظر: الباشا، د. عبد الرحمن. علي بن الجهم حياته وشعره، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية (٤٠) مصر، د.ت، ص ٥.

(٤) المصدر السابق: ص ٧٢، ٧٣.

(٥) الباشا، شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري، مؤسسة الرسالة، دار النفاذ ط ١، بيروت ١٩٧٤، ص ٥، ٧.

(٦) ويليك، رينيه ووارين، أوستن، ص ٦٩.

(٧) علي بن الجهم حياته وشعره، ص ١١٧ وما بعدها، شعر الطرد، ص ٨٧، ١٣٠.

(٨) المصدر السابق، ص ٢٢، وكان محقق الديوان خليل مردم قد وجد أن معمداً أخ للشاعر.

(٩) إيفلوتون تيري، نظرية الأدب، ترجمة ثائر ديب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥، ص ٣٢٨.

(١٠-١١) المصدر السابق، ص ١١٧، وينظر أيضاً علي بن الجهم (حياته وشعره) ص ٢٦، (غير أن هارن الديوان يستطيع

أن يلمس أموراً أربعة من شأنها أن تلقي

الأضواء على ثقافته...)

(١٢) علي بن الجهم، ص ١٢، ١٣، ١٤، ٢١.

(١٣) انظر شعر الطرد، ١٢٢ وما بعدها، ٢٥٨ وما بعدها، ٢٨٥، وما بعدها. انظر شعر الطرد،

ص ٢٦٨، ٣١٩، ٣٥٦، ٤٠٧/ ٤٣

(١٤) المصدر السابق، ص ٢٦٠، ٢٦١.

(١٥) المصدر السابق، ص ٧.

(١٦) ديتش، ديفيد. مناهج النقد الأدبي

بين النظرية والتطبيق ص ٦٠.

(١٧) علي بن الجهم، ص ٢، ١٨٣.

(١٨) انظر الصفحات: ٨٩، ١٦٦، ١٧٢.

١٩٣-٢٠٧، ٢٢٥.

(١٩) نقاد الأدب، ص ٣١.

(٢٠) ابن الوليد، يحيى، التراث والقراءة، ص ٨.

(٢١) عبد الحميد، جابر. نظريات

الشخصية، بيروت، دار النهضة

العربية، ١٩٨٦، ص ٢٨٩.

(٢٢) علي بن الجهم، ص ١٦٦.

(٢٣) انظر مقدمة كتابه علي بن الجهم (حياته وشعره).

(٢٤) ديتش، ديفيد. مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ترجمة محمد يوسف

نجم، مراجعة د. إحسان عباس، دار صادر،

بيروت، ١٩٦٧، ص ٤٣٣.

(٢٥) انظر علي بن الجهم، ص ١٣٢.

(٢٦) المصدر السابق ص ١٥٢.

(٢٧) دوفيللو، كارلوني، تطور النقد الأدبي في

العصر الحديث، ص ٥

(٢٨) شعر الطرد: ص ١٤٢.

(٢٩) علي بن الجهم، ص ٨٥.

(٣٠) المصدر السابق، ص ٨٤.

(٣١) موقف الإسلام من الأدب عامة ومن الشعر خاصة، ص ٢٨١.

(٣٢) علي بن الجهم، ص ٢١٧.

(٣٣) المصدر السابق، ص ١١٤.

(٣٤) ج. هيو، سلفرمان. نصيات بين الهرمينوطيقا

والتفكيكية، ترجمة حسن ناظم وعلي صالح،

ط ١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،

بيروت، ٢٠٠٢، ص ٥٩، ٦٠.

(٣٥) علي بن الجهم، ص ١٣٠.

(٣٦) شعر الطرد: ٢٣٤.

(٣٧) كريزويل، أدبث. عصر البنيوية،

ترجمة جابر عصفور، ط ١، دار سعاد

الصباح، الكويت، ١٩٩٣، ص ٢٧٥.

(٣٨) علي بن الجهم، ص ١٢٦، ١٢٨، ٢٢٦.

(٣٩) شعر الطرد، ص ٨٤.

(٤٠) علي بن الجهم، ص ٣٠.

(٤١) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٤٢) المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٤٣) المصدر السابق، ص ١١٥.

(٤٤) موقف الإسلام من الأدب عامة والشعر خاصة، ص ٢٧٣.

(٤٥) المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(٤٦) انظر هيكل، د. محمد. في الأدب

واللغة، ص ٤٠.

(٤٧) انظر دراسته لعلي بن الجهم، ص

٣٢٤٠، ٦٣، ٨٣.